

الذين لا يثقون إلا بالدجاجة إذا غيرنا بالأغمار الذين يجتمعون في أرضية
الازبكية لضرب الرمل واستنطاق الحصى فلا يسخرن أحد من بسطائنا
وجلائنا فإن لهم في الأمم الأوربية اقتتالا وامثالا من البسطاء « وكلنا
في الهوى سوا »

له ما اخترناه من الجزء الثالث



تبصرة وذكرى لقوم يعقلون

﴿ في بيان ان سعادة الأمة في التهذيب ﴾

تلك آيات من الحكمة ، تتلى على مجتمع هذه الأمة ، تنبه فكر
الناسي ، وتبث همّة الآسي ، وشذرات من معدن العلم السماوي ،
تهدي الى معمل الفكر الانساني ، ليصوغ منها عقوداً ، ويضرب منها
نقوداً ، تعلى بها اجياد العقائل المواطل ، وتعامل بها أكف المثري والمائل .
لعلهم يفلحون ،

إذا تأملت في تاريخ هذا الانسان رأيت ابناءه قد وقع منهم الاختلاف
في كل شيء « ولا يزالون مختلفين الا من رحم ربك » اختلفوا في العقائد
والمذاهب ، والعادات والمشارب ، وجرى هذا الخلاف منهم في مدركات
الحس ، كما سرى في مدارك العقل ، ألا ترى ان بعضهم لا يستطيع أكل
اللحوم ذوقاً ، كما ان بعضهم يستبجها عقلاً ، أما سمعت ان منهم من انكر
مظاهر الوجود وحقائق الاشياء زعماً انها خيالات وأوهام تراءى للحواس
ولا تحقق لها في نفسها . ومن رام حصر مواد الاختلاف والافتراق

بين الأمم والشعوب . وبين الآحاد والاشخاص فقد رام عبثاً وحاول
 شططاً وفيما أشرنا اليه من النموذج بلاغ لقوم يفقهون
 ان أصالة الخلاف والمناظرة وتمسكهما من نفوس افراد هذا النوع
 قد جعلته من الخواص اللازمة أو الفصول المقومة لذاته والمقسمة لجنسه
 بحيث يصح ان يعرف الانسان بأنه (حيوان مخالف) أفلا يجدر بنا ان
 نعجب بهذه اذا رأينا جميع الناس أو أمة منهم قد اتفقوا على شيء وأجمعوا
 على شأن ؟ ألا يجب علينا ان نقسم ذلك الشيء فتتخذ ذريعة لجمع كلهم
 واتفاق وجهتهم الذي لا قوام لحياتهم على الوجه الذي ينبغي الا به ؟ بلى
 ولكن اتى لنا الظفر بهذه الرغبة المفقودة ، والاهتمام لهاته الضالة
 الماشودة ، وكيف لنا ان نطمع بما يكاد يخرج به الانسان عن كونه الخاص
 به فلا يكون انساناً ؟ ولعل قائل يقول انا لا نرتاب في ان الاختلاف
 المطلق لا يفك عن البشر لكن ذلك لا ينافي الاتفاق على بعض الشؤون
 فهل تعلم لنا شيئاً لا تخالف فيه ولا تنازع وهو مما يقصد بالعمل ويتوصل
 اليه بالسعي لنجمله مقدماً للارتباط اذا أخذنا في الدعوة الى الاجتماع
 على أصول العلم الصحيح ؟ والجواب نعم ان هؤلاء الناس مما
 تباينوا في الوسائل واختلفوا في المقاصد فهم متفقون على شيء واحد
 يصح ان يكون علة غائية لكل حركة وسكون يصدران منهم الا
 وهو التخلص من البؤس والشقاء والظفر بهنساء العيش ونعمة البال
 عاجلاً أو آجلاً وان شئت قلت هو دفع المؤلم واجتلاب اللذات إما لنفس
 العامل فقط وإما له ولن يشاركه في المنزل أو الوطنية أو الجنسية . وما
 نشاهده من سعي الكثير منهم الى ما يسلمهم للهلكة ويتجافى عن مضاجع

الراحة والهناء فأنما هو لا خطأ النهج وخلال الطريق القصد
يظهر هذا في سيرة المحكوم والحاكم، والجاهل والعالم، والتاجر
والصانع، والحارس والزارع، والمنفق والمسك، والحليم والسفيه،
والشجاع والجبان، والعفيف والشره، كل يسعى لما يرى أن فيه راحته
ونعيمه. لكن ربما خفي على البعض في نحو الجاني والمتحرر ويظن أن الجاني
على غيره بما يعود على ذاته بالضرر أو التلف والمتعمد ازهاق روحه بيده
لا يقصد أن يعملها ما ذكر والحق أن عملها هذا ليس إلا تخلصاً من بلاء
أو توصلاً إلى نعماء؟ بحسب ما وصل إليه الاجتهاد. فالإنسان حريص كل
الحرص على تحصيل العيشة الراضية والحياة الطيبة وكل سعي أفرادها إنما
هو في هذه السبيل. وكما يطرد هذا في سعي طالب الحياة الدنيا يطرد أيضاً
في سعي مريدي الآخرة فالصائم والقائم، والزاهد والعابد، إنما يقصدون
السعادة الأبدية (٦٩ : ٢١ في عيشة راضية ٢٢ : ٢٣ في جنة عالية. قطوفها
دانية ٩ : ٧٢ ورضوان من الله أكبر)

فقد تبين أن الناس متفقون مبدأً وغاية (في الجملة) وإنما وقع الاختلاف
بينهم في الأفكار والأعمال (غالباً) من الخطأ في تصور الغاية بتصور ما ليس
بسمادة سعادة الذي يتبعه الخطأ في اختيار المبدأ الذي يستند إليه العمل
— كأن يتصور أن سعادته في تحصيل الثروة بآية وسيلة ومن أي طريق
ويختار المبدأ لا اكتساب المال السرقة وأمثالها. — وقد يكون تصور
الغاية صحيحاً ويقع الخطأ في اختيار المبدأ فيختل العمل المترتب عليه — كأن
يتصور أن السعادة في كسب المال من الطرق الشريفة في الوجوه المشروعة
ويرى أن المبدأ لذلك صناعة الكيساء (الكاذبة) بتحويل المعادن إلى ذهب —

كما يجوز ان يعرقل العمل مع صحة المبدأ والغاية لعدم السلوك اليه من طريقة
والمنقول عليه من باب - كأن يختار التجارة مبدأ لا لكسب ويتجهج على العمل
بغير علم بأساليبها ولا اختباراً ولعدم توفر دواعي النجاح من الخارج أي من
الأمور التي لا تقاها به الكاسب - كأن يختار التجارة أو الزراعة ويأتي
بجميع أسبابها مستوفياً شروطها فتزل بالزرع جائحة أو تذهب بالتجارة
الأنواء ويحطم السفين اعتلاج الأمواج -

فلينا ان نبحث في الطريق الموصل الى صحة الغاية ومبادئها وانتظام أمر
العمل بحيث ينطبق على المبدأ ويؤدي الى الغاية من غير خطأ ولا ضلال،
وبالنتيجة في انتظام أمر المعاش والمعاد بما تصل اليه يد الامكان ويدخل
في اختيار الانسان . وهو اشرف الابحاث وأفضلها لا ينطق لسان ولا يجري
يراع بأفضل من الكلام فيه . ولا غرو فان البحث فيما يوصل الانسان
الى الراحة والهناء في الدنيا والمثوبة الحسنة في العقبى لهو أجل ما يتحدث
فيه المتحدثون، ويتنافس فيه المتنافسون، فألق اليه السمع وأنت شهيد

أنت تعلم ان قوام الدنيا والدين بالعمل . والعمل لا يكون الا عن علم
فلا حري ان تقول بالعلم والعمل « وكلكم حارث - كاسب وعامل - وكلكم همّام »
يهم بالامر فيصلا - لكن الهم مختلف والكسب مختلف « منكم من يريد
الدنيا ومنكم من يريد الآخرة » ثم كل من القسمين طبقات فمنهم السائد
والمسود والقوي والضعيف والغني والفقير الى غير ذلك من الطبقات المتقابلة .
ولا سبيل الى المساواة بين الناس بحظهم في رتبة واحدة كما ينزع اليه
بعض الملاحظة في هذا العصر لان مبدع العالم تعالى فضل بعضهم على
بعض في الرزق وغيره كما اقتضته حكته في طبيعة الكون وجرت به

سنه « ولن تجد لسنة الله تبديلا » وإنما السبيل الذي تقصده والطريق الذي توخينا البحث عنه هو الذي إذا سلكه العالم الانساني على اختلاف الطبقات وتنوع المراتب فاز بالعيشة الراضية والحياة الطيبة ألا وهو تهذيب الاخلاق وكما لا يكون الا بالاستناد الى الدين المبين

التهذيب روح للوجود الطبيعي والمدني والسياسي تنال به هذه الوجودات سعادة الحياة وحياة السعادة شهيد بذلك التاريخ الصحيح وصدقه النقل السليم . لا راحة لفرد من الاشخاص في نفسه الا بتهذيب اخلاقه في نفسه ولا في منزله الا بتهذيب أهل المنزل وعلى هذا النحو أهل المدينة والمملكة العظيمة . فكما ان التهذيب الشخصي هو مدار انتظام معيشة الشخص الواحد كذلك التهذيب العمومي هو مدار انتظام معيشة الامة كلها اذ ليس المهذب الا من يقوم بحقوق نفسه وحقوق غيره على صراط العدل المستقيم

واذا كان انتظام أمر الحياة معلولا لتهذيب الاخلاق فبالضرورة يكون وجوده بوجود علته وعدمه لعدمها اذ لا معنى لكونه معلولا الا هذا . ومن هنا نفهم السر في اختلال معيشة الافراد وانتظامها . وانقسام امرى الاتحاد بين الجماعات والشامها . وصعود بعض الامم أعلى درج الارتقاء وهبوط بعضها الى أسفل درك الانحطاط . ووقوف البعض بين . تتنازعهم عوامل العلتين . حتى يأتي أمر الله . واعتبر ذلك في سير الانسان . من يوم علم تاريخه الى الآن . تلقه صحيحاً مطرداً

ربما خفي على البعض الارتباط بين الاخلاق والاعمال فلم يسلم بان

حسنها لحسنها وقبحها لقبها مع تسليمه بان سعادة الدارين انما هي بالاعمال
وهذا الخفاء لا يكون الا عن الجهل بمعنى تفض الاخلاق وما هو المراد منه
فاذا فهم ما هو المعنى منه انجلي له ذلك الارتباط كالشمس ليس دونها سحب
الاخلاق جمع خلق (بالضم) وهو صفة النفس كما ان الخلق (بالفتح)
صفة الجسد وقد عرفه علماء التهذيب بأنه هيئة راسخة في النفس تصدر
عنها الافعال بسهولة من غير حاجة الى رويّة ولا تفكر. وبيان ذلك ان
مما يتاجي الانسان به وجدانه ويوحى اليه احساسه انه لا يصدر عنه عمل
اختياري فعلا كان أو تركا الا عن داعية من النفس وان جميع جوارحه
مسخرة لخدمة سلطان الروح وان ارادة هذا السلطان التي لا ترد منها
جاءت بالجزم انما ينفذها الى الجوارح بريد الفكر والخيال . واذا دقق
النظر رأى ان جميع ارادات السلطنة الروحية تصدر عن دايتين الاولى
انفعال وتأثر - كالجوع يدعو الى الاكل - ومحلها الطبع والثانية ادراك وتصور
- كتصور خطر المرض يدعو الى تناول الدواء - ومستندها العقل وهاتان
الداعيتان آلتان لتحريك الاعضاء للعمل والآلة لا تتحرك بنفسها واليد
الحركة لهاتين الآلتين خلق حسن أو خلق سيء اذ لا تخلو الداعية للعمل
من مصاحبة أحد أمرين اما الجور بتفريط أو افراط كالاكل زيادة
عن الشبع شرها وجشعا أو ترك الشبع وما يناسب المزاج من الطعام
حرصا وبخلا وكالامتناع عن شرب الدواء عند الاحتياج استبشاعا لطعمه
أو تناوله مع الاستغناء عنه وسوسة ووهما . وإما العدل بانهضاء ما فيه
المصلحة مع التجافي عن طرفي الافراط والتفريط . والجور والعدل
جنسان لانواع الاخلاق الفاضلة والذميمة فاذا أصيب ملك الروح برزية

الجور فامر بما لا ينبغي ونهى عما ينبغي ورعية الجوارح لا مندوحة لها عن طاعته لا تلبث مملكة البدن ان يسرع اليها الفساد ويحل بها الدمار . وهذا واضح في مملكة البدن كما هو واضح في المملكة الظاهرية بل هو في مملكة البدن أشد وضوحاً وظهوراً . وأما إذا تحلى بفضيلة العدل فيستقيم ولا ريب نظام المملكة وتبلغ من الانتظام غاي الكمال

من فهم ما قلناه من ان جميع الاعمال انما تصدر بإرادة الروح عن داعيتين وان الروح في ذلك لا تخلو عن العدل أو الجور وعلم مع ذلك ان العدل هو غاية تهذيب الاخلاق بل هو المحور الذي تدور عليه سيارات الفضائل وان الجور ضده فهم وجه الارتباط بين الاخلاق والاعمال وأذن لتفاوتها بحسبهاضة وخسة ورفعة وشما وإذا لاحظ بعد هذا ما قلناه أولاً من ان الحصول على رغائب الدنيا والآخرة موقوف على العمل لا على الاماني والتشهي انكشف له مقدار تأثير الاخلاق في المجتمع الانساني صلاحاً وفساداً

كيف لا يكون الخلق المذهب أفضل الفضائل وغاية الكمال وهو ثمرة الاديان السماوية والشرائع الالهية بدليل قوله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم « انما بعثت لاتمم مكارم الاخلاق » وقد علمت انه ثمرة العقل السليم أيضاً . نعم أكثر آيات القرآن الكريم جاءت في الحث على مكارم الاخلاق (كالعدل والقسط في الامور كلها والبر والاحسان لجميع الناس والصبر والحلم والحياء والرفق والرحمة والوفاء والصدق والتواضع والعفو والامانة وأمثالها) وينهى ويحذر من سفاسفها (كالجور والجزع والغلظة والبخل والجبن والكبر والرياء والكذب والنفاق والخيانة والوقاحة والسفه

واشبابها) وفي حكاية أحوال المهذبين مع الثناء عليهم للاقتداء بهم وحكاية أحوال فاسدي الاخلاق في معرض الذم والتقريع للاعتبار والتنفير كما في قصص الانبياء عليهم السلام مع أممهم . وحسبك مع هذا قول عائشة (رضي الله تعالى عنها) في قوله تعالى « وانك لعلی خلق عظیم » : كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم خلقه القرآن . وقد ورد في ذلك من الاحاديث النبوية ما لا يكاد يحصى فدونك حاصل بعضها . وهو ان أفضل المؤمنين ايماناً احسنهم خلقاً . وان الخلق الحسن خير ما منح الله تعالى به العبد . وان أحب الناس الى النبي وأقربهم منه مجلساً احسنهم اخلاقاً . وان حسن الخلق ذهب بخير الدنيا والآخرة (انظروا وتاملوا) وانه يذيب الخطايا كما تذيب الشمس الجليد . وان العبد ينال بحسن خلقه الدرجات العلى مع ضعفه في العبادة . وان سوء الخلق يقذفه في أسفل درك جهنم . وانه يفسد العمل كما يفسد الخل العسل . وان الله تعالى قوى الايمان بحسن الخلق وقوى الكفر بسوء الخلق . وابلغ من ذلك ما روي ان سائلاً جاء النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من بين يديه وسأله ما هو الدين فقال حسن الخلق ثم جاءه عن يمينه ثم عن شماله ثم من وراء ظهره وسأله هذا السؤال واجابه بهذا الجواب ويقرب منه ما روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنها انه قال لكل بنيان اساس واساس الاسلام حسن الخلق

فاذا تبين ان خلق الانسان هو دعامة سعادته وعمادها ، وعليه مدار صلاح أموره الدينية والدنيوية وفسادها ، فيجب على كل فرد من افراد الامة ان يوجه قواه العقلية والمالية للحصول على هذه المنفعة الكبرى ، والسعادة العظمى ، وعلى العلماء ان ينهوا الاغنياء ويمقدوا معهم الجمعيات

للقيام بهذا العمل الجليل ولا عذر في التهاون والوفاى لقاء هذا المقصد الشريف
الا لمن تخطيطه شيطان الجهل فأسمى لا يميز الكمال من النقص، ولا يزيل
بين السمادة والشقاء . وكفاه عذره ذنباً . وأما من كان صحيح الفكر وتلا
أو تلى عليه ما ذكرناه ثم لم يعره اذناً صاغية، ولا نفساً واعية، رغبة في جمع
الحطام، والتلذذ بالشراب والطعام، واشتغالا بمفاخرة الاقران، وقهر
الاصنام، فلتنهأ له الحياة الحيوانية « في ظل ذي ثلاث شعب . لا ظليل
ولا يغني من اللبب » . والسلام على الانسانية وذويها، والفضيلة ومحبيها
في كل زمان ومكان

سؤال وجواب

كتب الينا غير واحد يسألنا عما جاء في مقالة (القول الفصل) المدرجة
في العدد الثاني من جريدتنا من تخطيطه الذين يستعينون بالاموات من
العلماء والصلحاء على قضاء المصالح واجتاء المنافع وقولنا في هذا البحث
« ويستنهضون همهم بالصياح والصراخ وتقديم هدايا الفوائج » هل
يتضمن هذا القول انكار كرامات الاولياء أو يلحق بهم شيئاً من الفضاضة
وهل فيه انكار لقراءة الفاتحة أو غيرها من القرآن الاموات
والجواب

معاذ الله ان نرمي بكلامنا الى غمط حقوق اولياء الله تعالى أو ننكر
ما أكرمهم الله تعالى به من فضله . وليس كلامنا ذلك في هذا الموضوع
وانما هو بحث في الاسباب التي بها اتا الله تعالى أمور الكون ولا
شك ان الاستغاثة بالاموات على قضاء الحاجات ليس من الاسباب